من وراء البحار

أدباء الألمان فى الوقت الحاضر

يرى هاينريخ فيشر ، كاتب المقال الهام الذى يبحث فى أدباء الألمان فى الوقت الحاضر ، وهو مقال نشر فى مجلة « هورايزن » الانجليزية فى عدد يناير ١٩٤٧ ، أن منظر ألمانيا فى الوقت الحاضر ، وهو منظر دمار وانحلال ، يدل دلالة بارزة على انحلال التفكير الانسانى فيها ، وهو نتيجة ست سنوات بل اثنتى عشرة سنة قضتها ألمانيا فى حرب ورعب . لذلك كانت الحياة الأدبية فيها الآن حياة فوضى غريبة ، حتى إنه لم يعد من السهل أن يعرف أكان الكتاب فى ألمانيا شركاء لهتلر أم هم ضحية له . لذلك يجب لكى يكوّن المرء فكرة عامة عن هذه الحال . أن يحاول تبين خصائص الحياة العقلية فى ألمانيا .

من أول مميزات هذه الحياة ، وهى التى تبعث الدهشة لدى الأجنى الذى يريد استكشاف الآداب الألمانية ، صفة تشاهد حتى قبل عهد هتلر ، وهى أن الأدباء الألمان قابلون للتحول عن آرائهم يوماً بعد يوم . ففى البلاد الأخرى نجد الأدباء هم الذين يخلقون الآراء التى يعتنقها الناس ، فى حين نجد الكتاب فى ألمانيا يسيرون وراء الآراء التى يخلقها الجمهور ؛ إذ نجد بين كتاب الألمان من أقدم على تغيير ، لا رأيه السياسى فحسب ، بل أسلوبه ونظرته إلى الأدب والحياة أيضاً ، ولم يتغير مرة بل ثلاث مرات أو أربع مرات . ونجد أمثلة كثيرة على ذلك بين كتاب الألمان من جرهارت هاوتمان إلى هانز كانوسا . ولقد كانت هذه الظاهرة من العلائم السيئة فى الأدب الألمانى . وقد اعتاد الجمهور الألمانى ألا ينتظر من أدبائه الاستمرار على فكرة والمحافظة عليها . وصار الأدب مجرد شعور ذاتى حتى لدى الأدباء الذين يصبون مؤلفاتهم فى قالب أخلاق أو سياسى . فاذا كان هتلر قد استولى على السلطة فليس ذنب الكتاب أنهم لزموا الصمت بما يدل على الرضا ، إذ الواقع أنه لم يرتفع صوت احتجاج واحد داخل ألمانيا ، بل إنهم انقلبوا أنصاراً للاشتراكية الوطنية ، ورأوا فيها اتجاهاً أدبيا

ناجحاً يستطيع الأديب أن يسير فى تياره فيصل إلى الشهرة فى أقرب وقت.

وقد يكون من المغالاة أن نقول إن هذا المظهر لم يكن إلا نوعا من انتهاز الفرصة ؛ إذ الواقع أن الاشتراكية الوطنية كانت توافق جانباً من تفكير الأديب الألمانى الحديث ، وهو إدارة ظهره عمداً لحقيقة الحياة . فقد أخذ الكتاب الألمان منذ عهد ستيفن جورج ينفصلون عن العالم الذى يحيط بهم ، ويخلون إلى أنفسهم . وإن الأسماء الكبيرة فى عالم الأدب فى الأربعين سنة الأخيرة لتدل على ذلك؛ فكارل ريلكى وفرانز كفكا والشاعرة الكبيرة لاسكار شويلر ، والشاعر النمساوى جورج تراكل ، كلها أسماء تبرهن على صحة هذا القول . وهذه الرغبة النفسية تظهر فى الكتّاب حتى عهد هتلر ، وقد لحظها الناقد الألمانى يا كوب فاسرمان .

فاذا ما سقط النظام الذى أقامه هتلر ، كان على عالم الأدب أن يجيب على أسئلة عدة : كيف يقابل الأدباء الحرية التى ردت إليهم ؟ وكيف يواجهون الظروف الجديدة ؟ وماذا يعملون فى سبيل الاتجاهات الأدبية ؟ وإنها لفرصة كبيرة وصفها الكاتب كارل بارت بقوله: « إن ألمانيا هى الآن معسكر ضخم لأسرى الحرب ، والألمان هم الأسرى داخل البلاد وخارجها . ولكن لألمانيا اليوم ميزة ليست لغيرها من البلاد ، وهى أنه لم يبق لها إلا أن تبتدئ حياتها من البداية . » ومعنى ذلك فى عالم الأدب أن تعود إلى الحقيقة ، وأن تخرج من تصوفها وعزلتها وأن تسلك طريق المسئولية الشخصية ، بعيدة عن الأعذار التى تنتحلها .

ويمكن أن يقال إن بعض الأدباء عرفوا واجبهم ؛ فالروائى أرنست فيشر د، الذى كان معادياً لنظام هتلر واعتقل فى إحدى المعسكرات ، أصدر من بضعة أشهر نداء للشبيبة الألمانية يدعوهم فيه إلى مواجهة الحقائق . ولكن الأصوات التى ارتفعت فى هذا الاتجاه كانت قليلة ، وظل السواد الأعظم من الأدباء والموسيقيين ورجال المسرح ملتزمين الصمت ، فى الأشهر الأولى بعد التسليم ينتظرون فى قلق ما يحل بهم من عقوبة . على أن هذه العقوبة لم توقع إلا فى النادر . وعلى ذلك أخذ أبرز الكتاب فى عهد هتلر يتجهون نحو الصحف التى سمحت قوات الاحتلال بظهورها ، وابتدأت مقالاتهم بأنواع من الاعتذارات وبأقبح الذم فى نظام هتلر ، وبأكبر المبالغات فى تمجيد انجلترا وروسيا وأمريكا . ومن الأمثلة البارزة على ذلك

أن إميل يانننجز الممثل المشهور فى عهد الفوهرر أعلن أن جدته يهودية ولدت فى روسيا . وأن دكتور كارل شارينج ، الذى كان من أوفى المذيعين لجوبلز ، كتب رسالة إلى الاذاعة البريطانية يطلب إليها عملا . وأن أيرك إبرمير تقدم لخدمة الأمريكان فى بافاريا فعين محافظاً لاحدى المدن ، فما كان من إحدى الصحف الألمانية إلا أن نشرت له رسالة كتبها فى سنة ١٩٤٢ يفخر فيها بعلاقاته مع جوبلز وجورنج . وقد كتب أحد الكتاب الذين اشتهروا فى عصر النارى ، وهو أوتو فليك ، نداء إلى الأدباء الألمان يعتذر فيه عن ضعفهم بأنهم اتبعوا مثل جيته ، والفيلسوف الصينى ثاو ، الذى قال إنه يجب على الانسان أن ينحنى ولا ينكسر بل عليه أن يعيش .

ولقد أدت هذه المحاولة التى أقدم عليها الأدباء الألمان بلا خجل إلى مواقف عجيبة ؛ فقد أعلن فى إحدى الصحف الألمانية أن روايات هانز فلادا قد سحبت من المكتبة العامة ببرلين لما فيها من اتجاهات نازية ، وظهر فى العدد نفسه من الصحيفة حديث مع هانز فلادا يعلن فيه أنه شرع يضع مؤلفاً ضخما يستنكر فيه مبادئ النازية ، إذ يرى أن من واجبه أن يربى الشبيبة الألمانية !

ولكن المثل الأكبر هذا الميل ، الذى ظهر فجأة فى الكتاب الألمانيين لتسويغ عملهم ، هو ما دار من نقاش حول موقف توماس مان .

لم يكن توماس مان بعيداً عن أخطار العزلة الفكرية التى كانت من نصيب الكتاب الألمان قبل أن يتسلم هتلر زمام السلطة ، وكانت هذه العزلة نوعاً من الاتجاه إلى تقليد الأدب الكلاسيكى . ولكن توماس مان صبّت عليه المحن فى عهد هتلر ، فتعلم من هذه المحن الاعراب عن خواطره بقوة والاتجاه نحو الحقيقة . وكان ذلك السبب فى أن إذاعاته للألمان كانت مليئة بالحياة فتأثر بها كل من سمعها ، وإن لم يكن لها الا صدى ضعيف عند الكتاب الألمان ، ولعلهم كانوا ينتظرون منه أن يمتطى جواداً أشهب ، ويدخل إلى برلين منتصراً على أثر جنود الحلفاء ، ليفتح صدره للأدباء الألمان ويعانقهم بعد القطيعة .

ولقد نشر كاتب من كتاب القصص التاريخية اسمه وولتر فون مولو رسالة مفتوحة الى توماس مان فى الصحف الألمانية ، دعاه فيها إلى العودة فى أسرع وقت إلى ألمانيا ليتزعم الحركة الأدبية . فرد عليه توماس مان رافضاً هذا العرض . وقام حول رفضه جدل

عنيف . ومن أهم ما جاء فى رسالة توماس مان قوله :

« لقد سرنى طبعاً أن ألمانيا تريد عودتى ، ولكنى أجد فى هذه الدعوة شيئاً مقلقاً ومثيراً ، ولا أقول غير منطقى أو ظالم ، أو على الأقل لم يدرس جيداً . فانك تعلم أنه من العسير نصح ألمانيا ومساعدتها اليوم بعد الكارثة التى لا مخرج منها ، والتى جرها الشعب الألمانى على نفسه . إنى هرم وقد أثرت الأزمنة المثيرة التى عشنا فيها فى عضلات قلبى . فهل أستطيع أن أساعد مساعدة جدية إذا جئت إلى تلك البلاد بجسدى ؟ وهل أستطيع أن أقيل من عثرة أولئك الذين سقطوا إلى الأعماق ؟ إنى أعتقد أن ذلك مشكوك فيه . هل يمكن محو هذه السنوات الاثنتى عشرة وما حدث فيها من الذاكرة كأن هذه السنوات لم تكن ؟ إنك يا سيدى لم تعرف قط ما يكتنف قلب المنفى من ضيق ، وما يشعربه من مخاوف وعزلة وما يتوقعه من مفاجآت ، ذلك الرجل الذى لا مأوى له . لقد مضت علىّ أزمان كنت فيها حانقاً للمزايا التى ظللت أنت تتمتع بها ، وبدا لى أن ذلك إنكار للتضامن بيننا . ولو حدث فى مبدأ الأمر أن كل رجل وامرأة له اسم فى عالم الفكر بألمانيا قد ثار ورفض تلك الذلة ، ولو حدث أن كل مفكر انضم إلى إضراب عام وهجر ألمانيا ، لكان لذلك شئ من التأثير فى البلاد وخارج البلاد . ولو أننا جميعاً عملنا ذلك لما كان ما حدث من بعد . . . لقد كان من وسائل العذاب العديدة لدينا أن رأينا الفكر الألمانى والفن الألمانى كيف يتطوعان لخدمة الدمار . فكيف يظن امرؤ أنه يقوم بخدمة شريفة إذا عهد إليه فى تصوير رسوم لروايات فاجنر كى تمثل هذه الروايات فى بايرويت فى عهد هتلر ؟ إنها لحالة عجيبة يخيل لى أنها تدل على عيون عمياء وقلوب من حجر ؛ إذ نرى رجلا يسافر إلى المجر أو أية بلاد أوربية أخرى ، وفى جيبه جواز موقع عليه من جوبلز ليلقى بعض المحاضرات الشيقة ، كى تكون دعاية ثقافية للدول الهتلرية . لا أقول إن هذا العمل فضيحة ، ولكنى أقول فقط إنى لا أفهمه وأشعر بالارتباك عندما أفكر أنى قد أقابل مثل هؤلاء الأصدقاء مرة أخرى . . . لست أفهم لماذا لم تمنع رواية « فيدليو » ، من تلحين بتهوفن فى هذه السنوات الاثنتى عشرة فى ألمانيا . لقد كانت هذه الرواية جديرة بافتتاح الموسم فى يوم تحرير الألمان لأنفسهم . ومن الفضيحة أن تكون هذه الرواية أخرجت قبل ذلك ،

إخراجا جيداً ووجدت مغنيين يغنون أناشيدها ، وعازفين يعزفون نغماتها ، وجمهوراً يصغى إليها . ما أقسى الرجال الذين حضروا رواية « فيدليو » فى ألمانيا الخاضعة لهملر ، دون أن يغطوا وجوههم بأيديهم ودون أن يتركوا دار الأوبرا مسرعين متألمين . . . إنى لتواق لمعرفة كل ما أستطيع معرفته عما يحدث فى ألمانيا بأية وسيلة ، فأنباؤها تسترعى عينى قبل أية أنباء أخرى من العالم الواسع ، ذلك العالم الذى أخذ يشعر بنفسه دون أن يفكر كثيراً فى ألمانيا ، وفى هذا ما يدلنى يوماً بعد يوم على الرباط الذى لا ينفصم والذى يصلنى بتلك البلاد القديمة التى طردتنى من عداد أبنائها . هل أنا أمريكى ومواطن من مواطنى العالم ؟ أجل ! هذا ما صرت إليه ، ولكن كيف أنكر الجذور التى نبتّ منها ؟ وبالرغم من الجرائم التى ارتكبها أولئك الذين جروا وراء آلهة غريبة كيف أنكر التقاليد الألمانية التى كانت فيها نشأة عملى وحياتى ؟

« لن أعدل عن اعتبار نفسى كاتبا ألمانيّا . ولقد كنت أمنياً على اللغة الألمانية حتى فى السنوات التى كانت كتبى فيها لا ترى ضوء الشمس إلا فى ثوب انجليزى . وليس ذلك لأن السن تقدمت بى حتى صرت لا أستطيع أن أتخذ لغة جديدة فحسب ، بل لأنى كذلك كنت أعرف أن لمؤلفاتى مكانها المتواضع فى تاريخ الأدب الألمانى . . . إن ألمانيا لم تمنحنى قط ساعات راحة : لقد كنت أتعذب معكم ، ولم أكن مبالغاً حين كتبت فى رسالتى إلى جامعة بون على القلق والحزن والعذاب الذى حاق بأفكارى وبحياتى جميعها ، ولم تنج منها ساعة من ساعات السنوات الماضية فى حياتى . وهذه هى المحن التى كان علىّ أن أقاومها فى عنف لأشق طريقى بوصفى فنانا خالقا » .

أثارت هذه الرسالة جدلا عنيفاً بين الكتاب الألمان . ولا ريب فى أن مسألة المهاجرين وعودتهم جديرة بالمناقشة . ولكن الكتاب الذين ردوا على هذه الرسالة كانوا من أولئك الذين لعبوا دوراً فى العهد الزائل ، وأرادوا أن يحتفظوا بمركزهم فى العهد الحاضر . من بينهم أديب اسمه فرانك تيس اخترع عبارة الهجرة الداخلية التى لجأ إليها هو وأمثاله فى عهد هتلر ؛ فهم على قوله كانوا مهاجرين سريين . هذا مع أن كتبهم كانت تدر عليهم الأموال والشهرة . قد يكون هذا الوصف منطبقاً على بعضهم ، ولكن السواد الأعظم منهم

لا ينطبق عليه هذا الوصف .

فاذا كان واجب الأدباء الألمان أن يتصلوا بالحقيقة ، وقليل منهم ويا للأسف يعمدون إلى هذا الاتجاه ، فان هنالك طريقين حاول بهما هؤلاء القلائل الاتصال بالحقيقة . أول هذين الطريقين الارتباط عمداً بالحياة العقلية فى غرب أوربا . والطريق الثانى العودة عودة حقيقية إلى التقاليد الألمانية ، لا اتخاذ هذه التقاليد على أنها زى جديد كما فعلوا فى عهد هتلر . ونجد فى أماكن مختلفة فى ألمانيا وبين المهاجرين من اتبعوا هذين الطريقين . ففى عهد هتلر نجد داخل ألمانيا الكتاب الكاثوليك هم الذين أزالوا الغشاوة عن أعينهم . ومن أشهر هؤلاء تيودور هيكر الذى توفى فى العام الماضى ، وقد ترجم كتب كيرجارد وكردنيال نيومان وبيلوك وفرانسيس توميسون ، ولكنه لم يكن مجرد ناقل بل كان كاتباً من الطبقة الأولى بين كتاب المقالات. وتعتبر كتبه « ما هو الانسان ؟ » عن بول كلودل، وكتابه الأخير : «عن الجمال» مثلا صحيحاً لما سمى بالهجرة الداخلية .

ومن بين أقرانه نجد المؤلفة الروائية جرترود فون لفورت والشاعر شنيدر والكاتب إرنست جوينجر مؤلف قصة « على تلال الرخام » .

ولقد حافظ الشاعر ديتريش بونهيفر على نزعة أدت به إلى الاتهام بالخيانة فى سنة ١٩٤٣ ، ثم قتل فى المعسكر الذى اعتقل فيه قبل أن تصله جيوش الحلفاء .

أما المهاجرون فمنهم ، فضلا عن توماس مان الذى عاد إليه شبابه ، ماكس هرمان نيس الذى مات بلندن فى غارة جوية سنة ١٩٤٠ ، وقد ترك مجلدين من الشعر فيهما وصف للريف الانجليزى ومخاوف الغارات والوحدة التى يجدها المهاجر .

ومن الكتاب المهاجرين برتولد فرتل الذى كتب بالألمانية عن الحياة فى انجلترا وأمريكا ، وبيرت درخت الشاعر ، والكاتب المسرحى انريجو بك الذى يعيش فى سويسرا ، وقد جمع بين وصف المناظر الألمانية والأسبانية .

فهل تجتمع هذه القوات المختلفة فتدب الحياة فى الأدب الألمانى من جديد ؟ كل ذلك سيتوقف على ظروف خارجية وعلى أحوال ألمانيا الاجتماعية ، وعلى تعقل لجنة المراقبة للحلفاء .